قال تعالى: فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم أولو الالباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الالباب

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الجمعة غرة رجب سنة ١٣٢٠ — ٣ اكتوبر (تشرين) سنة ١٩٠٢)

الاسلام والنصرانية ، مع العلم والمدنية

(وهو المقال الثالث لذلك الامام الحكيم ، والاستاذ العليم)

(نتائج هذه الاصول وآثارها في المسلمين)

الى م أفضت طبيعة الاسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان أثرها في اسلافهم الأولين ؟ — فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالرفيق الاعلى بست سنوات في رواية وتسع سنوات في رواية أخرى والاسلام في طلوع فجره ، وتفتح نَوْره ، فكان من بقايا ما تركت الازمان الأولى رجلٌ مسيحيٌ من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوي كان في بدء أمره ملاحاً يعبر الناس بسفينته وكان يميل الى العلم بطبيعته فاذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى الى مذاكرتهم ، ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم

وهو ابن أربعين سنة فبلغ فيه مالم يبلغه الناشئون فيه من طفوليتهم وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة حتى عُدَّ من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته

يقول كثير من مؤرخي الغربيين ومؤرخي المسلمين ان عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد فلاسفة الغربيين : « ان المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربي من الأفكار الحرّة والرأي العالي بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع »

خالط المسلمون أهل فارس وسوريا وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية في سوريا ولم تغيّر بالعربية الا بعد عشرات من السنين فاحتكت الأفكار بالأفكار وأفضت سماحة الدين الى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع

اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية ثم العقلية

وبعد عشرين سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه يحضّ على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس الى ذلك . وأخذ المسلمون يتحسّسون نور العلم في ظلام تلك الفتن استرسالا مع مايدعوهم اليه دينهم وتنبّههم لطلبه شريعتهم . وان كانت الحروب الداخلية التي اشتعلت نارها في أطراف بلادهم للنزاع في أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شيء من من مصالحهم فانها لم تشغلهم عن تلمّس العلوم والتناول منها بالتدريج على

سنة الفطرة . فالبراعة في الآداب من علم بوقائع العرب وتاريخهم وقول الشعر وإنشاء البليغ من النثر قد بلغت في خلافة بني أمية مبلغاً لم تبلغه أمة قط في مثل مدتها . وكان الخلفاء الأمويون يعلون منزلتها ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير . ثم ظهرت آثار العلوم العقلية في آخر دولتهم وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الاول .

نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من المدينة الى الشام ولم يسيروا في الزهد سيرة الخلفاء الراشدين فقد جاء رسول من الفرس الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما سئل عنه دُلّ عليه فذهب اليه فاذا هو نائم على الارض تحت نخل البقيع بين الفقراء وجاءت رسل الملوك الى معاوية رحمه الله فاذا هو في قصر مشيد محلّى البنيان بأجمل ما يكون من الصنعة العربية مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء مفروش بأحسن الفرش يرى الناظر فيه أفخر الأثاث والرياش . ولم يكن معاوية في ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقه وإنما تناول مباحاً وتمتع برخصة آتاه الله إياها ولا يخفى مافي ذلك من ترويج فنون الابداع في الصنعة على اختلاف ضروبها

اشتغالهم بالعلوم الكونية في أوائل القرن الثاني

انقضت دولة بني أمية والناس في ظلمات من الفتن كما قلنا ودالت الدولة لبني العباس واستقرت في نصابها من آل بيت النبي قرب نهاية الثلث الاول من القرن الثاني للهجرة (سنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك الى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية أيضاً . وأخذ المنصور ينشيء المدارس للطب والشريعة وكان قد جعل من زمنه ماينفقه في تعلم العلوم الفلكية وأكمل حفيده الرشيد ماشرع فيه وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة

لتعليم العلوم بأنواعها . وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم الى أوج قوتها ، ونالت بها أكبر ثروتها ، ويقال انه حمل الى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم مايثقل مئة بعير . وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة . فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس في الرياضة السماوية فأمر المأمون في الحال بترجمته وسموه بالمجسطي . ولايسهل على كاتب إحصاء ماترجم من كتب العلوم على اختلافها في دولة بني العباس أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم

انشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة

وقد أخذت دول الاسلام تعتني بديار الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها حتى كان في القاهرة في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مئة ألف مجلد منها ستة آلاف في الطب والفلك لاغير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين في القاهرة . وكان فيها كرتان سماويتان احداهما من الفضة يقال ان صانعها بطليموس نفسه وإنه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار . والثانية من البرنز . ومكتبة الخلفاء في اسبانيا بلغ مافيها ست مئة ألف مجلد . وكان فهرستها أربعة وأربعين مجلداً . وقد حققوا انه كان في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية . وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوي عليه . يقال ان سلطان بخارى دعا طبيباً أندلسياً ليزوره فأجابه ان ذلك لايمكنه لأن كتبه تحتاج الى أربعمائة جمل لتحملها وهو لايستغني عنها كلها . وكان حنين ابن اسحق النسطوري في بغداد ممن جعل

في داره مكتبة عامة يَفِد اليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان ينبرع عنها كرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه .

انتشار المدارس للعلوم وكيفية التدريس

غطي بسيط المملكة الاسلامية على سعتها بالمدارس . نقول « على سعتها » لأنها زادت في السعة على المملكة الرومانية بكثير . فكنت تجد المدارس في كل الاقطار — في المغول . في التتار من جهة المشرق . في مراكش . في فاس . في اسبانيا من جهة المغرب .

كانت طريقة الاساتذة في التدريس أن كل مدرس يُعِدُّ درسه ويكتب في الموضوع الذي يلقي الدرس فيه ما يريد ان يكتب ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه ثم تكون هذه الدروس كتباً وأماليّ تنشر بين الناس في كل علم . وهنا نبادر الى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على ان جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب غير ان مؤرخاً واحداً رأيته ذكر أنه قد وضع قانون في بعض الممالك الاسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه ان لا ينشر منها شيء الا باذن . على أني لا أعلم شيئاً من ذلك وقع في الممالك الاسلامية أيام كان الاسلام إسلاماً

نرجع الى الكلام في المدارس الاسلامية . يقول جيبون في كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق وفي الغرب : « ان ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في اعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد في الانفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه . وكان عن ذلك ان ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشرا في نفوس الناس من سمرقند

وبخارى الى فاس وقرطبة . انفق وزير واحد لأحد السلاطين (هو نظام الملك) مائتي ألف دينار على بناء مدرسة فى بغداد وجعل لها من الريع يصرف فى شؤنها خمسة عشر ألف دينار فى السنة . وكان الذين يُفْنَوْن بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصناع فيها . غير ان الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغني يكتفي بمال أبيه . والمعلمون كانوا يُقدمون رواتب وافرة » اه

انقسمت الممالك الاسلامية في زمن من الازمان الى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع . كان العباسيون في آسيا (الشرق) والامويون في الاندلس من أوربا (الغرب) والفاطميون في مصر من أفريقيا (الوسط) . ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصراً على الملك والسلطان ولكن كان التنافس أشد التنافس في العلم والادب . وكان مرصد سمرقند قائما في ناحية المشرق يشير الى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الافلاك ، ومرصد جبر الدي في الأندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الادراك ،

جميع المدارس في البلاد الاسلامية أخذت نظام الامتحان في المدارس الطبية عن مدرسة الطب في القاهرة وكان من أشد النظامات وأدقها . ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته الا على شريطة أن تكون بعد شهادة بأنه فاز في الامتحان على شدته . وأول مدرسة طبية انشئت فى قارة اوربا على هذا النظام المحكم هي التي أنشأها العرب فى سالرن من بلاد ايطاليا . وأول مرصد فلكي أقيم فى أوربا هو الذي أقامه العرب فى أشبيلية من بلاد اسبانيا

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها، والفنون الادبية بجميع أنواعها، حتى القصص والاساطير الخيالية، في الاحوال الاجتماعية، وابتدأوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية، وأخذوا ينقلون كتب الاولين من تلك الالسن الى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة. وكان مترجموهم في أول الامر مسيحيين وصابئين وغيرهم ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليوناني واللاتيني وكتبوا معاجم في اللسانين. وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها، وينقلوها الى لسانهم على حسب ما يصل اليه علمهم فيها، وكان المعلمون لأبناء العظماء في أول الامر من المسيحيين واليهود ثم انشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين. كلٌّ يعلّم العلم الذي عرف هو بالبراعة فيه

علوم العرب واكتشافاتهم

كان علم العرب في أول الامر يونانياً لكنه لم يلبث كذلك الا دون قرن واحد ثم صار عربياً. ولم يرض العربيّ أن يكون تلميذاً لأرسطو وأفلاطون أو اقليدس أو بطليموس زمناً طويلاً كما بقي الأوربي كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحي

قالوا إن باكون هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية وأقامها مقام الرواية عن الاساتذة والتمسك بآراء المصنفين وأطلق العلم من رق التقليد. ذلك حق في أوربا. أما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة. أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربيات وان لا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في

العلوم مالم تؤيدها التجربة حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد فلاسفة الاوربيين : أن القاعدة عند العرب هي « جرّب وشاهد ولاحظ تكن عارفاً » وعند الأوربي الى مابعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي « اقرأ في الكتب وكرر مايقول الاساتذة تكن عالماً » .(فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلب الحال، وماذا أعقب من سوء المآل)

قال دِيلاَمبر في تاريخ علم الهيأة : « اذا عددت في اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين امكنك ان تعد من العرب عدداً كبيراً غير محصور » . أما في الكيمياء فلا يمكنك ان تعد مجرّباً واحداً عند اليونانيين ولكنك تعد من المجرّبين مئين عند العرب ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم . وقد كانوا يمدون الهندسة والفنون الرياضية من الآلات المنطقية ، يستعملونها في الاستدلال على القضايا النظرية ، وهي من أصدق الأدلة في الايصال الى المجهولات كما هو معروف

العرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن وهم أوّل من اتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض . وقد اكتشفوا قوانين لثقل الأجسام جامدها ومائعها حتى وضعوا لها جداول في غاية الدقة والصحة كما وضعوا جداول للأرصاد الفلكية وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون في سمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا بتلك القوانين الى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية

لا يمكنني في مقالي هذا ان أعدّ ما اكتشف العرب ولا مازادوه في العلوم على اختلاف أنواعها فذلك يحتاج الى سفر كبير . وقد أحصى ذلك

أهل المعرفة والانصاف من فلاسفة الاوربيين ومؤرخيهم . وربما يتيسر لأبناء الأمة العربية أن ينشروا ذلك لاخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم.[1] ولكني أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين[2] : «تأخذنا الدهشة أحياناً عند ماننظر في كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد الا في زماننا كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كمال أنواعها فان هذا الرأي كان مما يعلّمه العرب في مدارسهم وكانوا يذهبون به الى أبعد مما ذهبنا فكان عندهم علما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن . والأصل الذي بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقي المعادن في اشكالها . قال الخازني : اذا سمع الشعب الجاهل ماقال بين العلماء ان الذهب قد تقلب في الأشكال المختلفة حتى صار ذهباً ظنّ من هذا أنه مرّ في صور معادن أخرى فكان رصاصاً ثم قصديراً ثم صُفراً ثم فضة ثم صار بعد ذلك ذهباً ولا يسلم ان الفلاسفة اذا قالوا ذلك فانما يقصدون منه ماأرادوه من قولهم في الانسان انه وصل الى حالته الحاضرة بالتدريج ومن طريق الترقي وهم لم يعنوا بقولهم هذا انه تقلب في صور الأنواع المختلفة كأن كان ثوراً ثم حماراً ثم فرساً ثم قرداً ثم صار بعد ذلك إنساناً» اه ويقول الفيلسوف كوستاف لوبون : « ان العرب أول من علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين »

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ماتقلوه عن ابن رشد من انه ذهب في حرية الرأي الى نقض أصل الدين وقال إن الروح لابقاء لها بعد فناء

---

(١) قد نشرنا جملة صالحة من ذلك في مقالات (مدنية العرب) في المجلد الثالث (٢) هو الفيلسوف درابر الاميركاني

الجسد وإنما الذي يبقى هي أرواح الأنواع . فإن هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه في بيان بقاء الأنواع دون الاشخاص فانه قال كما قال ارسطو وغيره : ان الأشخاص توجد وتفنى وأما الأنواع فهي باقية لاتزول . وهذا باب آخر يغاير بالمرة ما استنتجوا منه (وقد سبق الكلام في بيان رأيه من وجه آخر) [1] كما أخطأوا في قولهم عنه إنه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر في صوره والكل يرجع اليه بمعنى انه يفنى في ذاته ولا يبقى في العالم باق آخر وهو يقرب من قولهم السابق . فان ابن رشد كان مسلما وكان يعرف ان الاسلام لاينافي العلم وإنما ينافي هذا الضرب من الوهم الذي لم يسقط فيه أحد الا من عثرة في طريق العلم أو الاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهذا الرأي أفاقوا منه . ولكن كتب ابن رشد التي بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأي اليه كما سبق بيانه [2] ولكني لا أنكر نسبته لو نسب الى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلامذة ابن رشد فان في كلامه مايدل على ذلك

ويقول فيلسوف آخر : « ان العلوم التي تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر مقبورة بين جدران المكاتب أو مخزونة في بعض الرؤس كأنها أحجار ثمينة في بعض الخزائن لاحظ للانسانية منها سوى النظر اليها — صار عند العرب حياة الآداب ، وغذاء الارواح ، وروح الثروة ، وقوام الصنعة ، ومهمازاً للقوى البشرية يسوقها الى كمالها الذي أعدت له . وليس في الاوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر ان الفضل — في إخراج اوربا من ظلمة الجهل الى ضياء العلم وفي تعليمها

(١) و (٢) قد سبق ذلك في المقالة الاولى التي رد بها الكاتب على الجامعة

كيف تنظر وكيف تتفكر وفي معرفتها ان التجربة والمشاهدة هما الاصلان اللذان يبنى عليهما العلم — انما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التي حملوها اليهم وأدخلوها من اسبانيا وجنوب ايتاليا وفرنسا عليهم . وكان من حفظ العلم العربي والأدب المحمدي عند مادخلا الى إيتاليا ان البابا كان غائباً لأن كرسيه كان انتقل الى فرنسا في أفينيون نحو سبعين سنة فدب العلم الى شمال ايتاليا واستقر به القرار هناك . ان شوارع باريس لم تفرش بالحجارة الا في القرن الثاني عشر وقد رصت بالبلاط على نحو مارصت به مدن اسبانيا » اهـ

ويقول آخر : « لا أدري كيف أعطانا الاسلام في مدة قرنين عدداً من الفلكيين يطول سرد أفراده وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثني عشر قرناً في اوربا ولم تمنحنا فلكياً واحداً »

هذا النماء والزكاء العلمي لم يكن خاصاً بطائفة دون طائفة بل كان الناس في التمكن من تناوله سواء . وانما كان التفاضل بالجد والعمل . والفضل في ذلك كله لحلم الخلفاء وعدلهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته . قال بعض فلاسفة الغربيين قولا يعرفه الحق وتثبته المشاهدة : « ان شعوب الأرض لم ترقط فاتحاً بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحي الاسلام على اختلافهم) ولا ديناً بلغ في لينه ولطفه هذا الحد »

أخذ الخلفاء والامراء . بيد العلم والعلماء

ان الخلفاء الذين يقال عنهم انهم رؤساء دين وحكام سياسة معاً كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين الى تعلمها . كانوا العالمين العاملين . كان خليفة كالمأمون يضطهد أحياناً أعداء الفلسفة . وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا في سجنه الشهور أو السنين لأنهم كانوا

يعادون الفلسفة ظنًّا منهم ان منها مايدعو على الدين فيفسده . هل رأيت في غير الاسلام رئيساً دينياً يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ لعلك لاتجد أبداً

كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والأمراء والخاصة مايليق بهم كيفما كان حالهم . وسأضرب المثل بالشيخ أبي العلاء المعري لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة : يذكر علي بن يوسف القفطي أن صالح بن مرداس صاحب حلب خرج الى المعرة وقد عصى أهلها عليه فنازلها وشرع في حصارها ورماها بالمنجنيق فلما أحسّ أهلها بالغلب سعوا الى أبي العلاء بن سليمان وسألوه ان يخرج ويشفع فيهم فخرج ومعه قائد يقوده فاكرمه صالح واحترمه ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الأمير أطال الله بقاءه كالسيف القاطع لان مسّه وخشن حده ، وكالنهار البالغ قاظ وسطه وطاب برده ، « خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين » فقال له صالح قد وهبتها لك . ثم قال له انشدنا شيئاً من شعرك لنرويه فانشده على البديهة أبياتاً فيه فترحل صالح . فانظر كيف وهب الأمير بلداً عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف . ولو ذكرت ماناله العلماء والفلاسفة عند الأمراء والخلفاء لطال بي المقال أكثر مما طال وفيما سبق كفاية لمكتف

إزالة شبهتين وبيان حقيقة الاضطهاد

قد يتوهم قوم ان الاضطهاد قد يظهر في مقت العامة وخلقهم مايخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر وهمس بعضهم في آذان بعض وتغامزهم على أهل الفضل ولمزهم إياهم بالألقاب بل واحتقارهم في بعض الأحيان وهذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير . وهو خطأ ظاهر لأن

هذا النوع مما يكره أهل العلم لاتخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها فان القائمين على عقيدة الكاثوليك الى اليوم في أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة الكنيسة ويكتبون مايوهن قواعدها وقد يخلق عليهم أحزاب الكاثوليك مالم يقولوه ويرون ان النظر في كتبهم لايجوز في شريعة الدين . ونحن لا نرتاب في ان نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ولكنه ليس من الاضطهاد في شيء وإنما هي نفرة الانسان مما لايعرف مع ترك صاحبه وشانه يمضي في سبيله الى حيث يشاء

يقول آخرون : ان التاريخ يروي لنا ان بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوه في فكره فلم يترك له من الحرية مايتمتع به الى منتهى مايبلغ به وليس يصح أن ينكر ماصنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة

وأقول : ان كثيراً من الغلو اذا انتشر بين العامة أفسد نظامها وأضر بأمنها كما كان من آراء الحلاج وأمثاله (١) فتضطر السياسة للدخول في الأمر لحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفكر لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه مع أن غيره في غنى عما يراه هو حقاً له وتخشى الفتنة اذا استمر مدعي الحرية في غواته فلهذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن ينفى منهم المجتمع صوناً له عما يزعزع أركانه . ونحن نرى الفلسفة

---

(١) المنار — ذكر امام الحرمين في كتابه (الشامل) في أصول الدين انه كان بين الحلاج والجنابي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة وان ذلك هو السبب في قتل الحلاج

اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة وان لاينشأ شيء منها الا بإذن من الحكومة ومن لم يخضع لذلك تحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح. وقد نفى من البلاد كما نفي كثيرون في سنين سابقة ؟ ولكن هل يسمى هذا اضطهاداً ؟ كلا ولكن الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الاصلاح بعدها في أول نشأتهم

ماذا يقول القائلون ؟ ان التعليم عند المسلمين كان غريباً أمره، يكاد يكون خفياً سره، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوي والمتأدب والفيلسوف والفلكي والمهندس: ينتقل الطالب من بين يدي الفقيه ليجلس بين يدي الفيلسوف ومن مجلس الحديث الى مجلس الأدب . واذا وقعت مذاكرة بينهم في مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها في الإقناع والإلزام وسقطت قيمة الغلو في التعبير وأخذ التسامح بينهم مأخذه . كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة في أصول مذهبه ومع ذلك هو من مشايخ الامام البخاري صاحب الصحيح وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذي منزلة عنده حتى قال له يوماً وهو خارج من بين يديه : « رميت لكل الناس حباً فلقطوا الا أنت ياعمرو بن عبيد » فانظر كيف كان لامام من أئمة السنة أن يصل سنده في الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى في ذلك بأساً

اذا عدّ عادٌّ بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الاسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين فما عليه الا أن ينظر

فى أحوالهم فيقف لأول وهلة على ان الذي آثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين وأن ليست الغيرة عليه هي الباعث لهم على الوشاية بهم وطلب تنكيلهم . وإنما تجد الحسد هو العامل الأول في ذلك كله والدين آلة له . ولهذا لاترى مثل ذلك الأذى يقع الا على قاضي قضاة (كابن رشد ورجوع الحاكم الى العفو عنه وإنزاله منزلته دليل على ذلك) أووزير أو جليس خليفة أو سلطان أو ذي نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لإيذاء الفلاسفة يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لإهلاك بعضهم بعضاً كما يشهد به العيان ويحكي لنا التاريخ فليس هذا كذلك ممدوداً من معنى اضطهاد الدين للفلسفة لأن التحاسد أكثر ما يقع بين من لادين لهم على الحقيقة وان لبسوا لباسه . وإنما ذلك الاضطهاد هو الذي يحمل عليه محض الاختلاف في العقيدة أو ظن المخالفة للدين في شيء من العلم أو العمل لضيق الدين عن ان يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع في الاسلام . اللهم الا أن يكون حادث لم يصل الينا

هذه طبيعة الدين الاسلامي عرضت عليك في أهم عناصرها ومقوّمات مزاجها . وهذا كان أثرها في العالم الشرقيّ والغربي . وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لأولئك المخالفين ان يحتموا به متى رضوا بأن يستظلوا بظله . هل في هذا خفاء على ناظر ، وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر ، أفلا يسم الاسلام عجباً وهو في أشد الكرب لعقوق أبنائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ان لم يحسبه في أحبائه ، عند مايراه يسدد سهمه اليه ، ويجور كما يجور الجائرون في حكمه عليه ؟؟

﴿ الاسلام اليوم — أو الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام ﴾

المقال الرابع لذلك الامام الحكيم

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا ان طبيعة الاسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقي وأنه لم يقع من المسلمين الأولين تعذيب ولا إحراق ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقوّمي العقول البشرية ، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أوليس الناس تبعاً لهم ؟ أفلا يكون للأديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله ؟ ألم يسمع بأن رجلا في بلاد اسلامية غير البلاد المصرية كتب مقالا في الاجتهاد والتقليد وذهب فيه الى ماذهب اليه أئمة المسلمين كافة . ومقالا بين فيه رأيه في مذهب الصوفية وقال انه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزئ به أو مايقرب من هذا وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله . فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه هاج عليه حَمَلة العمائم ، وسَكَنَةُ الاثواب المباعب ، وقالوا انه مرق من الدين ، أو جاء بالإفك المبين ، ثم رفع أمره الى الوالي فقبض عليه وألقاه في السجن . فرفع شكواه الى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله الى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه بين يدي عادل لايجور ، ومهيمن على الحق لايحيف ، الخ ماقال في الشكوى . فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك كله فقد صدر الأمر هناك أيضاً بسجنه ولم يعف عنه الا بعد أشهر مع انه لم يقل الا مايتفق مع أصول الدين ولا ينكره القارئ والكاتب ، ولا الآكل والشارب ،

ألم يسمع السامعون ان الشيخ السنوسي (والد السنوسي صاحب الجغبوب) كتب كتاباً في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول

المالكية وجاء في كتاب له مايدل على دعواه أنه ممن يفهم الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى مايخالف رأي مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم في علماء الجامع الأزهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترئ الاستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لو لاقاه وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة ، ونجّى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل ان يلاقيه الاستاذ المالكي .

هل غاب عن الاذهان ما كان ينشر في الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الازهر من المقالات الطويلة الأذيال الواسعة الأردان في استهجان إدخال علم تقويم البلدان (الجغرافيا) بين العلوم التي يتلقاها طلبة الجامع الأزهر ؛ وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بادخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم وأنه إنما يريد الغضّ من علوم الدين . أم لم تنشر في العام الماضي فصول بأقلام بعضهم تشير الى الطعن في عقيدة البعض الآخر وإرادة التشهير به مع انه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولا يبعد من الكتاب والسنة ؟

ألم تحمل الينا الرواة ماعند علماء الأفغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ماورثوا عن آبائهم الأقربين ، وإقامة الحرب على كل من حاول ان يزحزحهم أصبعاً عما كان عليه سلفهم ، وان كان في البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم في حكومة المغرب من الغلوّ في التعصب والمعاقبة بقطع بعض الأعضاء في شرب الدخان أو بالقتل

في كلة ينكرها السامعون ، وان أجمع عليها المسلمون الآخرون ،

ثم ألا يخيل المؤمل انه يسمع من جوف المستقبل صخباً ولجباً وضوضاء وجلبة ، وهيعات مضطربة ، اذا قيل انه ينبغي لطلبة الأزهر ان يدرسوا طرفاً من مبادئ الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعي ؟ ألا تقوم قيامة المتقين ، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيرون بهذا الى ان لا يبقى شيء عرف له اسم في اللغة الا ألصقوه بهذه البدعة في زعمهم

هل هذه الحال جديدة على المسلمين حتى يقال إنها عارض عرض عليهم ، أو مرض من الامراض الوافدة اليهم ، ؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن ان هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم خصوصاً عند ما يجد الوحدة في الصفات ، والشمول في جميع الاعتبارات ، فلو أخذ مسلما من شاطئ الاطلانطيق وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهي : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه وإن نطق به الكتاب واجتمعت عليه الآثار . اللهم الا فئة قليلة زعمت أنها نفضت غبار التقليد وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الاحاديث لتفهم أحكام الله منها . ولكن هذه الفئة أضيق عطناً وأحرج صدراً من المقلدين وان أنكرت كثيراً من البدع ونحت عن الدين كثيراً مما أضيف اليه وليس منه . فانها ترى وجوب الاخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به بدون التفات الى

ماتقتضيه الاصول التي قام عليها الدين، واليها كانت الدعوة، ولاجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية السليمة أحياء،

هل يمكن ان ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الآراء في فهمها واذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأي فيها احجموا عن إبداء الرأي واجتهدوا في تحويلها عن حقيقتها الى أن تتفق مع قول معروف في كتاب من الكتب حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدولة العثمانية وأراد الالتحاق بأحد الأروقة في الجامع الأزهر فوقع الشك هل بلده مما لأهله استحقاق في ذلك الرواق على حسب نص الواقف . فقال قائل لشيخ الرواق : ان كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل في شرط الواقف فقال : إني لا أقنع بما في تلك الكتب وإنما الذي يصح ان آخذ به هو ان يكون فقيه (ممن مات) قال : ان هذا البلد من قطر كذا وهو الذي وقف الواقف على أهله . واذا قيل لأحدهم : إن الأئمة أنفسهم لم يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولاً لبيان مايحويه كل قطر وبيان الحدود التي ينتهي اليها وإن أصول ديننا تسمح لنا بأن نأخذ بأقوال العلماء في هذه الفنون (وهم منا) وبتواتر الاخبار وما أشبه ذلك من البديهيات قال : انما أريد نصاً فقهياً ، لا دليلا عقلياً ،

واذا قيل لهم : اختلت الشؤن ، وفسدت الملكات والظنون ، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الاخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر ، وغالت أكثرهم اغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة ، وانقلبت

العزة ذلة ، والهداية ضلة ، وساكنتكم الحاجة ، وألفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك الى البحث في اسباب ما كان سلفكم عليه ، ثم علل ماصرتم وصار الناس اليه ، قالوا : ذلك ليس الينا ، ولا فرضه الله علينا ، وإنما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فان لم يفعلوا ولن يفعلوا فذلك لأنه آخر الزمان وقد ورد في الأخبار مايدل على انه كائن لامحالة وان الاسلام لابد ان يرفع من الارض ولا تقوم القيامة الا على لكع ابن لكع . واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الأمل ، ولا تدع في نفس حركة الى عمل ،

رأي رنان في الاسلام : هذا الجمود — الذي لو أردنا بيان ما امتد اليه من طبقات الأفكار وثنيات الوجدان لكتبنا فيه كتاباً — هو الذي حمل الموسيو رنان الفيلسوف الفرنسي المشهور ان يقول في عرض كلام له في تساهل المذاهب الدينية مع العلم نقلته عنه الجامعة : «على أني أخشى ان يثبت الدين الاسلامي وحده في وجه هذا التسامح العام في العقائد ولكنني أعرف ان في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الاسلامي القديمة وفي بضعة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة تدل على فكر واسع وعقل ميال الى المسالمة . الا اني أخشى ان تخنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء فاذا اختنقت قضي على الدين الاسلامي . ذلك انه من الثابت الآن أمران — الأول ان التمدن الحديث لا يريد إماتة الأديان بالمرة لأنها تصلح أن تكون وسيلة اليه . والثاني انه لا يطيق ان تكون الأديان عثرة في سبيله . فعلى هذه الأديان ان تسالم وتلين والا كان موتها ضربة لازب » اه كلام رنان بتصرف لفظي قليل

فمن أين يكون هذا الجمود العام الذي سمح للطاعنين ان يحكموا على الاسلام بأنه عثرة في طريق المسلمين يسقط بهم دون ان ينالوا فلاحاً في سعيهم ، أو نجاحا في أعمالهم ، من أين يكون هـذا الجمود ان لم يكن من طبيعة الدين ؟ ومن أين يكون ما سردناه من الحوادث إن لم يكن ناشئاً من أصول الدين ؟ فان لم تسلم بأن هذا اضطهاد وان الاضطهاد من لوازم الدين الاسلامي فعليك ان تسلم بأنه عداوة للعلم أو اشمئزاز منه ، أو استهجان له أو احتقار لشأنه ، وأحد هذه الأمور كاف اذا عم بين المسلمين في ان ينفر بهم عن كل مجد ، وأن يحرمهم كل نفع ، وان يحقق فيهم ما تنبأ به رنان وغيره فما قولك في هذا ؟؟ (له بقية)

(المنار) سيأتي الجواب في الجزء الآتي وفيه بيان حقيقة هذا الجمود وأسبابه وكونه لابد ان يزول ان شاء الله تعالى فانتظر العجب العجاب

الاجتماع السادس لجمعية أم القرى

يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦

في الضحى الأول من اليوم المذكور تألفت الجمعية حسب معتادها وقرئ الضبط السابق واستعدت الاذهان لتلقي ما يفيضه الله على ألسنة أهل الإيمان من الإخوان

قال (الاستاذ الرئيس) مخاطباً (الشيخ السندي) انك يا مولانا لم تشاركنا في البحث الى الآن فنرجوك أن تتكرم على إخوانك بنبذة من عرفانك تنور بها افكارنا ونرجوك أن لا تحتشم من التعلم في بعض التعبيرات اللغوية لغلبة العجمة عليك فان لك أسوة بالفيروزابادي والسعد والفخر وغيرهم .

فقال (الشيخ السندي) إنكم ايها السادة الاخوان سراة افاضل الزمان ، وسباق فرسان كل ميدان ، قد افدتم وأجدتم ولم تتركوا القائل من مجال ، ولا لمثلي غير الإصغاء والامتثال ، وإني احب ان اذكر لكم حالتي وفكرتي قبل هذه الاجتماعات وما